حتميات الثورة الحسينيّة

واحدة من الأحداث التي غيّرت مجرى التاريخ عبر العصور المتعدّدة وما تزال تعمل على التغيير في المجتمعات والنفوس المختلفة وعلى المستويات المتعدّدة هي ثورة الحسين (عليه السلام) الخالدة ومن أبرز النقاط التي ساعدت الثورة في نهضتها هي الحتميات التي اختصّت بها، والتي حدّدها الحسين (عليه السلام) بنفسه حتى قبل وقوع الثورة. وهذا الأمر بحدّ ذاته فريدٌ؛ بل هي من معجزات الثورة وكراماتها التي لم تتوقّف عند حدٍّ معين، وقد انتشرت في الأوساط النقيَّة بشكل واسع، واستقبلتها أصحاب الضمائر الحيّة بكثيرٍ من الاهتمام حتى صارت من أولوياتهم باعتبار أن سعادة الدنيا والآخرة متوقّفة عليها.

وقد ظهرت الحتميات بشكل واضح في الكلمة التي وجّهها الحسين (عليه السلام) إلى أخيه محمد بن الحنفية وإلى سائر بني هاشم، إذ قال (عليه السلام): (فأمّا بعد: فإنّه من لحق بي منكم استشهد ومن لم يلحق لم يبلغ الفتح)، وهذه الكلمة على قصر ألفاظها تحمل دلالات كثيرة ومغزى عميقًا فقد حدّد الحسين (عليه السلام) مجموعة من الأمور التي ستكون وبشكل قطعيّ، وقد دلَّت على ذلك صيغة الماضي في قوله (عليه السلام) (استشهد). فقد استبشر (عليه السلام) بشهادة جميع من لحق به قبل وقوع يوم عاشوراء وهذه الحتميّة التي صدرت عن المعصوم (عليه السلام) حيَّرت العلماء؛ فكيف له (عليه السلام) أن يتنبّأ بشهادتهم وهو لم يصل كربلاء أصلًا، وهذا الأمر يؤكّد على علاقة الثورة بالسماء وأن الأمر جرى بتخطيط إلهيّ وتنفيذ حسينيّ، وقد أشار (عليه السلام) إلى ذلك بقوله: (خُيِّر لي ...وأنا ملاقيه)، أي إن الله اختار ذلك وامتثل الحسين (عليه السلام) وكان مخيَّرًا غير مضطر إلّا أنه لمّا عُرِضت عليه المسألة وافق عليها إيمانًا واحتسابًا.

وأما الحتميّة الثانية التي دلَّت عليها ثورة الحسين (عليه السلام) فهي حتميّة الفتح، وقد ظهر ذلك في قوله (عليه السلام) كما تقدّم: (ومن لم يلحق لم يبلغ الفتح). فالحسين (عليه السلام) يؤكّد على حتميّة الفتح، والفتح عند الحسين يكون بمستوى الشهادة، لذلك نجده (عليه السلام) يقيِّد الفتح بالشهادة، والظاهر من كلامه (عليه السلام) أن الفتح لم يكن عسكريًا؛ بل لم يكن من الحكمة أن يقصد الحسين (عليه السلام) ذلك، وإنما قصد (عليه السلام) بالفتح فتح العقول والقلوب لصوت الحقّ، فقد كانت الأمة في سبات حقيقيّ في ظلِّ استهتار يزيد وبني أمية بالثوابت الإسلامية واستخفافهم بمقدرات المؤمنين. فلما قامت ثورة الحسين بدأ الناس بالتفكير، وعمدت الشخصيّات والعشائر إلى النهضة بوجه يزيد وحكومته الفاسدة، فتوالت الثورات حتى أسقطت دولة بني أمية بشعارات الثأر والرضا لأهل البيت (عليهم السلام) ومحاولة إعادة الإسلام إلى الوضع الطبيعيّ الذي كان عليه في أيام رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

والحتميّة الكبيرة الثالثة هي حتميّة العلاقة بين الشهادة والفتح، وهذا يعني أنه لولا الشهادة المباركة التي أقدم عليها الحسين (عليه السلام) لما تحقّق الفتح، وبذلك يتبيَّن لنا إصرار الحسين (عليه السلام) في التوجّه إلى كربلاء والعراق على الرغم من أن هناك العشرات من الذين نصحوا الحسين (عليه السلام)، إلّا أنّه كان يُجيب في كل مرةٍ: (شاء الله أن يراني قتيلًا وأن يراهنَّ سبايا)، ونستدل على ذلك بالعطاء الكبير الذي قدَّمه (عليه السلام) من أجل الإسلام والمسلمين؛ ليستقيم لهم الأمر ويسلمون على أمور دينهم ودنياهم.

والحتميّة الأخرى والمهمّة التي نقتبسها من كلمة الحسين (عليه السلام) هي أنّ هذا الفتح من النوع الذي لا يتكرّر، فكما هو معلوم أنّ هناك أحداثًا لن تتكرّر، فمثلًا معركة بدر لا تتكرر بمعنى أن المسلمين لو كانوا منكسرين وخاسرين في بدر كان بذلك نهايتهم، فالأمر لا يتحمل المرة الثانية، وكذلك ثورة الحسين (عليه السلام) فلو لم يكن هذا الفتح الحسينيّ لكان على الإسلام السلام؛ لأن خلفاء بني أمية زاغوا بالإسلام إلى الانهيار الخُلقي والسياسي والاجتماعي؛ بل في جميع جوانب الإسلام الحقيقي حتى بلغ بهم الأمر إلى إقامة صلاة الجمعة يوم الأربعاء، وزادوا على ذلك فقد كان خلفاء بني أمية يعاقرون الخمر ويلعبون القمار ويبيحون النساء ويتسامرون بالليل حتى يُصبحوا وقد هتكوا جميع الحرمات؛ لذلك كان الأمر يستلزم صيحة موجعة تردهم وتوقظ الأمة عليهم ليقفوا بوجههم، وهذا ما حصل بالقيام المقدّس الذي قاده الحسين (عليه السلام) وقدّم فيه كلّ غالٍ ونفيس.